

خشوع قلوب المؤمنين لذكر الله



قد يحتاج المؤمنون في خصوصيتهم الإيمانية من حيث عمقها في الروح وفاعليتها في الشعور والوجود إلى هزةٍ روحيةٍ تناهٰى أفكارهم ومشاعرهم، حتى لا يتجمد فيها الإيمان فيتحول إلى معاذلةٍ عقليةٍ لا تحمل أي نبضٍ في الروح، أو يزحف إليهم الباطل فتخشع قلوبهم لرموزه، وحتى لا تتحجر القلوب فلا تخشع لذكر الله، ولعظمته الحق في الإسلام، مما يفرض عليهم أن يتعمقوا في التصور، ليتعرّفوا إلى الله في موضع عظمته وأسرار قدرته، ويستغرقوا في موضع نعمه، ليدركوا أنَّه وحده الذي يملك الأمر كلَّه، ويهيمن على الوجود بكلِّ موجوداته وحركته.

ثم لابد لهم من أن يستعيدوا في وعيهم العقلي وفي وجدانهم الروحي الآيات التي أنزلها الله على رسوله، في ما تشمله عليه من حقيقة العقيدة ونظام الشريعة ومنهج الفكر والحياة وحركة الإنسان في الواقع، ليدركوا أنَّ هذا الفكر الذي يستمد حيويته وقوته من وحي الله، هو الفكر الذي يجب أن يلتزموه، وأن يتمثلوه في وجدانهم، وأن يحملوه في حركتهم في الحياة، كعنوانٍ للانتماء ولللواعي للحياة، لأنَّ ذلك هو الذي يحميه من الانحراف، وينقذه من الضلال ويعمق في داخلهم وفي امتداد مسيرتهم على مدى الزمن معنى الرقة في القلب والخشوع في الروح، حتى لا تؤثر عليهم المؤثرات السلبية التي ترهق القلب، وتجفف بنا بيع الروح.

(أَلَمْ يَأْنِ لِلْمُذْكَرِينَ آمَدُوا أَنَّ رَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا زَلَّ مِنَ الْحَقِّ) (الحديد/16)، قد يكون هذا الحديث للمؤمنين الذين يستعملهم الله للحصول على حالة الخشوع القلبي الذي يجعل كيان المؤمن كله خاشعاً له، في اهتزاز الشعور بالعظمية والنعمة في إيحاءاته بالمحبة من جهةٍ، والخوف من جهةٍ أخرى، حيث يمتزجان في كلِّ مشاعره وأحساسه وأفكاره، ليجعلان منه الإنسان المنفتح على الله الخاضع له.

قد يكون هذا الحديث منطقاً من حالة جفافٍ روحي عاشهما المسلمين آنذاك، مما جعل الذكر يفقد روحيته في قلوبهم، كما أبعد الإسلام عن موضع العمق في عقولهم، الأمر الذي فرض الحاجة إلى نداءٍ إلهي قوي، يحذّرهم من ذلك، من خلال التأثيرات السلبية التي تمنعهم من الاندماج في محبة الله، والانسحاق أمام مشاعر الخوف منه، ليكون الله مجرد اسم في الذاكرة، ويتحول الإسلام إلى صورة حامدة في الخطارة، (وَلَا يَكُونُوا كَالْمُذْكَرَينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ) (الحديد/16)، حيث تحول الكتاب عندهم إلى عنوان لا يحمل في داخل قلوبهم شيئاً من معانيه، والدين إلى انتقامٍ فارغٍ من الروح لا يؤكد خطه في الحياة الفكرية والعملية لهم، أما اسم الله، فيتحول إلى إلهٍ قومي لا ينفتح على الناس

كـلـهـمـ بـمـحـبـتـهـ وـرـحـمـتـهـ، بـلـ يـخـصـهـمـ بـهـاـ، أـوـ يـبـقـيـ فـيـ أـفـكـارـهـ جـامـدـاـ لـاـ يـحـمـلـ أـيـةـ نـبـضـةـ حـيـاـةـ (فـاطـمـاـلـ عـلـاـمـ بـهـمـ الـأـمـادـ) (الـحـدـيدـ / 16)، وـابـتـعدـواـ عـنـ حـيـوـيـةـ الرـسـالـةـ وـرـوحـانـيـةـ الرـسـولـ فـيـ اـنـطـلـاقـتـهـ الـحـيـةـ الـقـوـيـةـ الـوـاعـيـةـ، فـتـحـولـوـ إـلـىـ تـقـلـيـدـيـيـنـ يـتـخـذـ الدـيـنـ عـنـهـمـ صـفـةـ الـعـادـةـ الـجـامـدـةـ فـيـ شـخـصـيـاـتـهـمـ، (فـقـاسـتـ قـلـوـبـهـمـ) (الـحـدـيدـ / 16)، وـفـقـدـواـ الـخـشـوـعـ لـذـكـرـهـ، فـلـمـ يـبـكـوـ خـوـفاـً مـنـ عـقـابـهـ، وـلـمـ يـخـضـعـواـ رـجـاءـ لـثـوابـهـ، وـلـمـ يـرـجـعـوـ إـلـيـهـ، أـوـ يـجـلـسـواـ بـيـنـ يـدـيـهـ فـيـ شـكـوـيـهـ الـعـبـدـ لـسـيـدـهـ عـنـدـمـاـ تـحلـهـ بـهـ الـمـشـاـكـلـ، أـوـ تـحـاـصـرـهـمـ الـأـزـمـاتـ، أـوـ يـشـتـدـ بـهـمـ الـحـرـمـانـ، بـلـ يـرـجـعـوـنـ إـلـىـ عـبـادـهـ، وـيـعـتـمـدـونـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ، بـعـيـدـاـً عـنـهـ) (1).

وـهـكـذـاـ اـبـتـعدـواـ عـنـهـ بـالـفـكـرـ وـالـرـوـحـ وـالـحـرـكـةـ، فـاـنـحـرـفـوـاـ عـنـ الـخـطـ الـمـسـتـقـيمـ، وـتـمـرـدـواـ عـلـىـ أـوـاـمـرـهـ وـنـوـاهـيـهـ، وـاقـتـرـفـواـ الـكـثـيرـ مـنـهـمـ (وـكـثـيرـ مـنـهـمـ فـاسـقـونـ) (الـحـدـيدـ / 16)، فـيـ أـقـوـالـهـمـ وـأـعـمـالـهـمـ وـعـلـاقـاتـهـمـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ، وـقـلـيلـ مـنـهـمـ مـؤـمـنـونـ مـتـقـونـ خـاشـعـونـ فـيـ قـلـوبـهـمـ، فـيـ رـقـةـ خـاضـعـةـ خـاشـعـةـ تـلـامـسـ الـرـوـحـ، وـتـفـتـحـ الـقـلـبـ عـلـىـهـ (1) وـعـلـىـ الـخـيـرـ الـمـنـطـلـقـ مـنـ وـحـيـ الـإـيمـانـ بـهـ.

(أـعـلـمـوـاـ أـنـ اللـهـ يـعـيـيـ الـأـرـضـ بـعـدـ مـوـتـهـاـ) (الـحـدـيدـ / 17)، فـيـنـزـلـ عـلـيـهـاـ المـاءـ بـعـدـ جـفـافـ طـوـيـلـ، فـتـخـضـرـ فـيـ هـزـةـ الـعـشـبـ، وـنـصـارـةـ الـشـجـرـ، وـرـزـهـ الـوـرـدـ.. وـهـكـذـاـ يـوـحـيـ ذـلـكـ إـلـىـ النـاسـ بـأـنـ (1) يـحـيـيـ الـعـقـولـ الـمـيـتـةـ بـفـعـلـ الـجـهـلـ بـالـمـعـرـفـةـ، وـالـقـلـوبـ الـمـيـتـةـ بـفـعـلـ الـضـلـالـ عـنـ الـهـدـىـ وـالـإـيمـانـ.

(وـقـدـ بـيـسـنـدـاـ لـكـمـ الـآـيـاتـ لـعـلـكـمـ تـعـقـلـونـ) (الـحـدـيدـ / 17)، عـنـدـمـاـ تـفـكـرـوـنـ فـيـ مـضـمـونـهـاـ مـنـ أـجـلـ الـانـفـتـاحـ عـلـىـ الـحـقـ كـلـهـ فـيـ مـوـاـقـعـهـ فـيـ حـيـاـةـ النـاسـ، كـمـاـ هـوـ فـيـ مـوـاـقـعـ الـحـقـ الـقـيـمـ الـبـارـزةـ فـيـ قـدـرـةـ (1) فـيـ الـأـرـضـ، فـيـنـفـتـحـ لـلـعـقـلـ أـكـثـرـ مـنـ نـافـذـةـ عـلـىـ الـمـعـرـفـةـ الـوـاسـعـةـ الـتـيـ تـضـيـءـ الـرـوـحـ وـالـوـجـدـانـ وـالـحـيـاـةـ.

المصدر: كتاب تفسير من وحي القرآن